

# البر بالوالدين..



بقلم: د. يعقوب يوسف الفخيم

إن من أهم ما أمرنا به الله عز وجل فيما يتعلق بحياتنا العامة البر بالوالدين، وأداء حقهما علينا - بصفتنا أبناءهما - في كل الظروف والأوقات. ومن أظهر ما يمكن الاستدلال به من القرآن الكريم على ذلك هو قوله تعالى في الآية رقم 14 والآية رقم 15 من سورة لقمان، (ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن وفصاله في عامين أن اشكر لي ولوالديك إلي المصير وإن جاهدك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفا واتبع سبيل من آتاك إلي ثم إلي مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون).

كل مسلم أن يبر بسببها والديه، وأن يعترف بهما، ولا يتجاهلهما، ولا يقطع صلته بهما مهما كانت الظروف. وأهم من كل ذلك أن لا يتركهما فينتسب إلى أحد غيرهما مهما كانت الفائدة الدنيوية التي تعود عليه من ذلك، فهي فائدة محرمة تعود عليه بغضب الله وعقابه، ولن تجدي المنافع الدنيوية التي قد يحصل عليها المرء المنتسب إلى غير أبيه شيئا في مقابل غضب الله وعقابه.

•••

ولقد وردت آثار كثيرة من أقوال الحكماء والمجربين مما له صلة ببر الوالدين، والحث على رعايتهما، وإبداء محبتتهما، وطاعتتهما، ومما يدلنا على ذلك ما يلي:

● ما ورد عن الحسن بن علي، رضي الله عنهما، أنه قال ردا على من سأله عن بر الوالدين: «هو أن تبذل لهما ما ملكت، وتطيعهما فيما أمرك به ما لم يكن معصية».

● وقيل لعلي بن الحسين رضي الله عنهما: «إنك من أبر الناس بوالدتك، ولسنا نراك تاكل معها؟ فقال: أخاف أن أسبقها إلى شيء سبقت عينها إليه فأعقبا بذلك».

● وقيل لأحدهم وقد مات ابن له: «كيف كان بر ولدك بك؟ فقال: ما ماشيته قط في النهار إلا مشى خلفي، ولا بالليل إلا مشى أمامي».

كما وردت في مسألة ادعاء المرء إلى غير أبيه أقوال كثيرة منها ما جاء في كتاب الله عز وجل مما سبق لنا ذكره، ودلت عليه الآية الكريمة رقم 5 من سورة الأحزاب ونصها: (ادعوهم لأبائهم هو أقسط عند الله فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم في الدين ومواليكم وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ولكن ما تعمدت قلوبكم وكان الله غفورا رحيمًا).

ووردت في هذا الشأن - أيضا - أحاديث لرسول الله ﷺ، منها قوله: «ملعون ملعون من انتسب إلى غير أبيه...»، كما ورد عنه ﷺ أنه نهي عن شهادة الزنيم، وهو اللثيم الذي ينتسب إلى غير أهله.

وكان العرب القدماء يسخرون من كل من يدعى إلى أب غير أبيه، ويحرضون على معرفة الأنساب حتى لا يجد أحد المدعين مجالا إلى الدخول في قوم ليس منهم. وقد لقي أحد الظرفاء شخصا فسأله قائلا: من أنت؟ قال: قرشي والحمد لله، ولم يعجب السائل هذا الرد، بل وجد فيه شبهة. فرد عليه: الحمد لله في هذا الوضع ريبة، أي أنها موضع شك في النسب. إضافة إلى كل ذلك، فإن الله سبحانه وتعالى قد أمرنا بصلة الأرحام - بشكل عام - ونهانا عن الانقطاع عن كل من يمت إلينا بصلة - ومن دلائل ذلك قوله الكريم في الآية رقم 1 من سورة النساء: (واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبا).

وقد اهتم العرب الأوائل بأمر هذه الصلة حتى امتدت إلى تقوية الارتباط بالقبيلة التي ينتمي إليها الشخص، مع الفخر بأعمال رجالها والاعتزاز بهم، ولا شك في أن قوة صلة المرء بقبيلته عند العرب كانت دليلا على قوة ارتباط الأبناء بالأباء، ودليلا آخر على نقاء الأسر من الأدياء الذين ينتسبون إلى غير آبائهم. وكان هذا الاهتمام بأمر النسب جاريا منذ ما قبل الإسلام، وقد استمر في العصر الإسلامي، وأكده الدين الحنيف، ودعا إليه رسول الله محمد ﷺ. فقد جاء في ذلك حديث شريف جاء نحصه كما يلي: «قال عبدالله بن أبي أوفى: كنا مع النبي ﷺ فقال: لا يجالسنا قاطع رحم. فقام شاب فأتى خاله له، وكان بينه وبينها شيء، فأخبرها بقول النبي ﷺ، فاستغفرت له، واستغفر لها، ثم رجع إلى النبي في مجلسه فأخبره. فقال ﷺ: إن الرحمة لا تنزل على قاطع رحم».

فلننظر - بعد هذا - إلى الخطأ الجسيم الذي يرتكبه من ينفي نفسه عن الانتساب إلى أبيه. والذي يأتي أن يعتد بأسرته التي ولد فيها، ونشأ بيدها، ثم يتركها، ويتنكر لها في سبيل الحصول على مصلحة دنيوية لا تدم.

•••

لا أقصد فيما قدمته هنا الاستعداد على المخالفين، فالجهات المختصة تؤدي واجبها في هذا الشأن على خير وجه، وهي بذلك تسعد أبناء الكويت بإعالمهم أولا بأول عن أمثال هؤلاء المخالفين لأمر الدين قبل مخالفتهم للقانون وعداوتهم على المصلحة العليا للوطن، ولكنني أشير إلى أن أبناء من تسول له نفسه اتباع هذا الطريق الوعر دينا ودينا. فقد رأينا الدين وهو يشهد في النهي عنه، ورأينا السلطات المختصة عندنا كيف تتلطف بالمخالفين.



**وصية القرآن الكريم المتكررة بالوالدين دلالة على العناية الإلهية العظيمة بهما لما يبذلانه في سبيل تنشئة الأولاد من صبر وإنكار للذات وتقديم مصلحة أولادهما على مصالحهما**

**ينبغي للإنسان الاحتفاظ للوالدين بما يستحقان من التقدير.. وإن حاولا إبعاده عن حظيرة الإسلام فهو مأثور بأن يعاملهما بالحسنى وأن يخضع لهما فيما لا يخالف الدين**

**مما يؤسف له أن نجد بعض ضفاف النفوس قد تركوا الانتماء إلى أهلهم من آباء وأمهات وأسر لكي يلتحقوا بأخرين من أجل مصالح مادية يجنونها بسبب ذلك**

**العرب القدماء كانوا يسخرون من كل من يدعى إلى أب غير أبيه ويحرضون على معرفة الأنساب حتى لا يجد أحد المدعين مجالا إلى الدخول في قوم ليس منهم**

منه، ثم بث منهما رجلا ونساء هم وهن كل من على الأرض اليوم.

● على الناس جميعا أن يتقوا الله ويخافوا عقابه، وقد فسر المفسرون قوله الكريم (الذي تساءلون به) بأنه إشارة إلى ما يردده الناس بينهم من قول بعضهم لبعض حين يطلب منه أمرا من الأمور أسألك بالله وبالرحم الذي بيننا.

● وأخيرا فإن الله رقيب علينا جميعا، يرى أفعالنا، ويسمع أقوالنا، ويغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء.

•••

نعرف مما مر بنا مكانة الوالدين في الدين الإسلامي، وبتحسين أهمية برهما، وسوء ماك من يخالف ذلك، فيقابلهما بما قدما له في حياته ومنذ نشأته بالعقوق وبكفران ما قدما له.

ونضيف إلى ذلك - في هذا الموضوع - أمرا آخر ذا علاقة بما تقدم ذكره، وله في الوقت نفسه أهمية لا تنكر، وهذا هو ما تدل عليه الآية الكريمة رقم 4 من سورة الأحزاب حين بين الله عز وجل للمسلمين خطأ ما يقوم به البعض منهم، عندما يلحقون بأنسبهم من ليسوا منهم، فيدعى أحد الناس أنه والد هذا الذي لم يكن من أولاده، أو ينتسب الدعي إلى شخص يعلن ابوته له وهو لا يمت إليه بصلة نسب. ولقد نهى الله عن ذلك، وهذا النهي هو ما تدل عليه الآية الكريمة المشار إليها، وهي: (ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه وما جعل أزواجكم اللائي تظاهرون منهن أمهاتكم وما جعل أدعياءكم أبناءكم ذلكم قولكم بأفواهكم والله يقول الحق وهو يهدي السبيل).

فهذا نهى جازم عن مثل هذا العمل، وهو النهي الذي أشار إليه قول النبي ﷺ: «إن من أعظم الفري (الكذب) أن يدعى المرء إلى غير أبيه».

وقال رسول الله ﷺ: «لا ترغبوا عن آبائكم، فمن رغب عن أبيه فهو كفر».

وقال ﷺ: «من ادعى إلى غير أبيه، وهو يعلم أنه غير أبيه فالجنة عليه حرام».

إذن، فإن من طاعة الوالدين ألا ينتسب أحد إلى غير والديه، وإن طاعتهم أمر عظيم، ومما يدل عليه من قول الرسول الكريم - أيضا - أن أحدهم سأله ﷺ قائلا «من أحق الناس بصحابتي يا رسول الله، قال: أمك، قال ثم من؟ قال: أمك. وفي الرابعة قال: ثم من؟ قال أبوك».

ولهذه المكانة التي جعلها الله سبحانه وتعالى للوالدين، وعبر عنها رسول الله ﷺ في هذا الحديث الشريف، ينبغي على

تؤمنون بالباطل، وتكفرون بنعمة الله عليكم، ويخرج بعضكم عن طاعة الله الذي خلقكم».

وفي ما تقدم إشارة إلى خروج هؤلاء عن الطاعة ومخالفتهم لما خلقهم الله سبحانه وتعالى من أجله، ودلالة على ضرورة ارتباط البنين والحفدة بآبائهم وأمهاتهم.

•••

أراد الله سبحانه وتعالى أن يكون المجتمع المسلم مجتمعاً تقياً لا تشوب أهله الشوائب، فجعل أساسه الزوج والزوجة، وفروعه أولادهما وبناتهما، وكان بدء هذا الصنع الإلهي منذ خلق سيدنا آدم ﷺ، وأما حواء وما أنجباه من نسل.

وعندما أوحى الخالق الجبار إلى سيدنا محمد ﷺ وكلفه بحمل رسالة الإسلام والدعوة إلى التوحيد، كان أمر المجتمع وبنائه من أهم أركان هذه الدعوة، فقد نظم أمر الزواج، وحرص على صيانة المجتمع، وتألفه، معتمدا على أسرة تسودها المودة والألفة وكان من أهم ما ميز هذا الاهتمام بالأسرة هو الحرص على نقاتها، وعلى عدم اختلاط الأنساب، وبذلك تكون الأسرة المسلمة تقية فاضلة بعيدة عن الشبهات، وكان ذلك بأن نهى أي فرد من المسلمين عن أن يدعى بنسب إلى غير أبيه، ونهى الأباء عن ادعاء أبوة من ليسوا من آبائهم، فهو يريد أن تكون العلاقات بين أفراد الأمة واضحة جلية لا تشوبها الشوائب، ولا يجد من له رغبة في الفساد فرصة لمداراة فساده عن هذا الطريق الممجوج، وواراد أن تكون الأسرة التي بدأت بآدم وحواء عليهما السلام هي النموذج النقي الذي يبقى على مر الزمان، وكل من يغير صلته بأهله وأبيه فهو يخل بالنظام الذي وضعه الله سبحانه وتعالى للبشر.

ولقد جاء في أول سورة النساء ما يبين كل ذلك الذي ذكرناه فهو يحذر عن كل تجاوز لما قدره الله عز وجل لخلق، وذلك بقوله الكريم: (يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبا).

ولقد فسر علماء التفسير هذه الآية فقالوا إنها تذكر ما يلي:

● الدعوة إلى تقوى الله ومخافة عقابه عند مخالفة المرء لأمر الإلهي، وعند اقترافة الإثم بارتكاب ما نهى الله عنه.

● أن الله عز وجل خلق الخلق جميعا من نفس واحدة هي نفس آدم الذي وصف خلقه في آيات من الكتاب الكريم.

● أن الله القادر خلق حواء زوجة آدم

إلى ما ورد في القرآن الكريم أن رسول الله ﷺ عد ذلك من أعظم الكذب. وهل هناك أعظم من أن ينكر المرء آباءه ويلتصق بأب آخر غريب عنه من أجل مصالح ينالها. ومن المهم هنا أن نورد مثلا لتأكيد القرآن الكريم مكانة الوالدين، وما ينبغي لهما من التكريم، وهو ما جاء في الآية رقم 11 وما بعدها من سورة المعارج، التي تنص على قوله تعالى: (ببصروهم يود المجرم لو يفتدي من عذاب يومئذ ببنية وصاحبه وأخيه وقصيلته التي تؤويه ومن في الأرض جميعا ثم بنجيه).

وقد جاءت هذه الآيات الكريمة بعد أن بدأ الله جل شانه سورة المعارج بالإجابة عن سؤال سائل عن العذاب الواقع الذي ليس له من دافع، وهو عذاب الكفار في الآخرة، الذي وصفه، وبين ما يحدث منه. ثم ذكر حال المجرم، وقتذاك، حين يطلب الأفتداء من ذلك العذاب المحقق به. على أن يكون هذا الأفتداء ببنية أو زوجته، أو أخيه، أو بعشيرته التي يأوي إليها، أو حتى كل من في الأرض. يريد بذلك النجاة من أهوال يوم القيامة التي يصفها الله عز وجل بعد ذلك وبين شدتها.

ومن الملاحظ أن المجرم - وهو في ذلك الموقف العسير - قد أراد أن يفتدي من العذاب ببنية، وبزوجته وأخيه، بل وقبيلته كلها، ومن في الأرض جميعا. ولكنه لم يذكر أبويه فهما عند الله سبحانه وتعالى أبعد من أن يكونا مجال افتداء أو مساوته. وهذا في حد ذاته دليل على مكانة الوالدين عند رب السموات والأرض.

ومن آيات الله الكريمة ما نقرؤه في سورة النحل (الآية رقم 72) وهي قوله تعالى: (والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة ورزقكم من الطيبات أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله هم يكفرون).

وتدل هذه الآية دلالة واضحة على سوء منقلب من يدعى إلى غير أبيه، فالله عز وجل يفضل لنا فيها ما يلي:

● أنه سبحانه وتعالى قد خلق من الجنس الإنساني أزواجا من رجال ونساء، وهذا هو ما يؤدي إلى التراحم، والتواد بين بني الإنسان من ذكر وأنثى.

● أنه عز وجل هو الذي جعل من الزوجين البنين والأحفاد من أجل استمرار بقاء بني آدم، وإحياء الأرض وعمارتها.

● وأنه رزق الخلق من الطيبات ما يمكنهم من العيش الكريم، وراحة البال، ويضمن تكاثرهم.

● ويأتي بعد ذلك التساؤل الإنكاري لما قابل به كفار قريش النبي ﷺ، وهو ما معناه «أفبعد كل هذا الذي بيناه لكم،

تذكرنا هاتان الآيتان بما يبذله الوالدان في سبيل أبنائهما منذ بدء خلق الطفل في بطن أمه، حيث تحمله مجتازة مشقة كبيرة في الحمل والولادة والرضاعة والتربية، حيث يقوم الأب بدوره مساعدا لها في تحمل بعض ما مر بها من صعاب، فهو رب الأسرة المكلف برعايتها وتوفير كل ما تحتاج إليه من أمور، ولذا فقد جعل الله سبحانه وتعالى على الولد واجب الشكر لهما لما بذلاه من جهود في سبيل تنشئته منذ أن حملته أمه وأرضعته، ومنذ أن قام الأب بدوره في سبيل رعاية ابنه وتربيته وتلبية كل ما يحتاج إليه، ومن أجل ذلك فقد أكرم رب العالمين هذا الابن بالشكر للوالدين والإحسان إليهما، وهذا في حد ذاته أمر عظيم يدل على أهمية بر الوالدين، والأمر بالعناية بهما، كما قال عز وجل في الآية رقم 24 من سورة الإسراء: (واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا).

ومما يدل على أهمية هذا الأمر الإلهي أنه منع إلحاق الأذى بالوالدين حتى وإن حاولا صد ابنيهما عن الإيمان بالله وحده، ذلك أنه ينبغي على ولدهما أن يصاحبهما في الدنيا بالمعروف، دون أن يعرضهما للقسوة. وذلك لأنهما بذلا أشق جهد في تنشئته، ومن أجل هذا فإنه ينبغي أن يحتفظ لهما بما يستحقان من التقدير، وإن حاولا إبعاده عن حظيرة الإسلام، فهو مأثور بأن يعاملهما بالحسنى، وأن يخضع لهما فيما لا يخالف الدين، أما ما أراداه منه فهو متروك لإرادة الله سبحانه وتعالى الذي يقول: (واتبع سبيل من آتاك إلي ثم إلي مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون).

إذن فإن الأصل هو: بر الوالدين. ونهى الله عز وجل عن إيذائهما وأمر ببرهما، وهذا الأمر مطلوب حتى وإن حاولا صد ابنيهما عن دينه، وهو من أهم الدلائل على الأهمية القصوى التي قدرها عز وجل للوالدين، ويكفي ذلك قوله الكريم: (وصاحبهما في الدنيا معروفا).

وتؤكد هذه الآية الكريمة آية أخرى من سورة العنكبوت سبق ذكرها وهي رقم 8 ونصها: (ووصينا الإنسان بوالديه حسنا وإن جاهدك لتشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما إلي مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون).

ثم نتكرر وصية القرآن الكريم بالوالدين، بما يظهر لنا الدلالة على العناية الإلهية العظيمة بهما، من أجل ما يبذلانه في سبيل تنشئة الأولاد، مع صبر وإنكار للذات، ومع تقديم مصلحة أولادهما على كل مصلحة تخصهما، وهما - إلى جانب ذلك - وسيلة جعلها الله من أهم وسائل امتداد الكون وعمارته. ومما يدل على ذلك قوله تعالى في الآية رقم 23 من سورة الإسراء: (وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا).

هذا، وتوصية القرآن الكريم بالوالدين تتكرر في عدة آيات أخرى غير تلك التي أشرنا إليها، وهذا أمر له دلالة على العناية الإلهية بهما لما بذلاه وببذلانه في سبيل النشء، وما يتميز به الآباء والأمهات من إنكار للذات، وتقديم لمصلحة الأبناء على كل مصلحة تخصهما، وهما - أيضا - وسيلة جعلها الله سبحانه وتعالى من أهم وسائل استمرار الحياة في الكون.

•••

هذه هي المكانة التي اختارها الله سبحانه وتعالى للوالدين، وبها حفظ الأسرة المسلمة من التفكك، ومن الزيغ والضلال، وضمنت البقاء على النقاء الذي يحفظ المجتمع من التمزق، ويحافظ على روح المجتمع.

وهذا كله - ولا شك - يكفل ارتباط الابن بأهله وأبيه، وبالتالي بأسرته الكاملة التي اكتسب منها خبراته في الحياة، وصفتها بين الناس فهي عنوانه الذي يعرف به، وهي الصفة التي نهى عن أن يتجاوزها إلى صفة أخرى غيرها بالتصاقه بأسرة غير أسرته.

ومما يؤسف له أن نجد بعض ضعاف النفوس قد تركوا الانتماء إلى أهلهم من آباء وأمهات وأسر، لكي يلتحقوا بأخرين من أجل مصالح مادية يجنونها بسبب ذلك. وهي مصالح دنيوية سرعان ما تتحطم أمام المصالح الذي يحرم مثلها، لأنه يدعو هؤلاء إلى الالتزام التام بالانتساب إلى الآباء الحقيقيين والأمهات اللائي ولدنهن والأسرة التي بذلت لهم الحب والرعاية. ومما يدل على حرمة هذا الفعل بالإضافة